

الأحكام المطلقة والنوايا الحسنة

ليزلي ساكس

موقع قضايا أمن الأسرة

8 أكتوبر 2009

Absolutism and 'Good Intentions'

By Leslie Sacks

Family Security Matters Website

رسمية، وصاحبة صالة لعرض اللوحات في لوس انجلس.

ليزلي ساكس

ترجمة: علي الحارس

في سنوات الشباب كنت مفتونة بالأفكار، وقوة الكلمة، وسحر المفاهيم وألقها. لقد آمنت حينها بأن نقاء روعي وقوة قناعاتي ستضيء الطريق أمامنا وتفتح حتى أفسى القلوب. كانت الأفكار عشقي الأول: مقنعة جدا، وصادقة إلى حد كبير، وكاملة بشكل مدهش، وتثبت نفسها بنفسها، ومحقة. كما قمت باللباس هذه الأفكار رداء القداسة وقربتها إلى قلبي، وبالطبع، لا يبلغ مكانة القداسة إلا بعض حالات العشق، وأقل القليل من الأفكار.

أما الآن، وأنا في العقد السادس من حياة ملؤها التجربة والخطأ في اختبار تلك الأفكار، فقد أصبحت أزداد وعيا، يوما بعد يوم، بالتنكر النفسي، والتزيين الاجتماعي، وتزييف وسائل الإعلام التي تسلط الضوء على مجموعة من مزاعم التفوق الأخلاقي والفكري، وهي مزاعم مستندة إلى أفكار.

إن الأفراد الأنانيين المتسلطين دائما ما يغلفون حوافز البحث عن الذات عندهم بغلاف من النوايا الحسنة، فالزعم بمعرفة ما ينفع البشر هو أكثر المهدئات نفعا لمرض الأنانية وضيق الأفق. والأخطر من ذلك أن هذا المنهج يعطي ناشطيه منطلقا ذاتي الشرعية لفرض وجهة نظر فرد ما على الآخرين. فإذا «اهتدي» هذا الشخص وشعر بالارتياح لذلك، ووجد أن الرؤية الجديدة تذهب بقلقه وتذبذبه وتفاهته (وما يكرهه من تداعياتها)، فإنه لا يشك في وجوب تنوير هؤلاء الذين هم أقل منه حظا وتعليما ومعلومات، وإن تطلب ذلك استعمال الاضطهاد أو حتى القوة عند الضرورة.

الأحكام المطلقة والنوايا الحسنة

وهكذا فإن الفتاوى الحديثة لملاي السعودية. وأحكام محاكم التفتيش في أسبانيا القرن الخامس عشر. وحركات التبشير العنيف بكافة أشكالها: تتشارك جميعها على نحو واضح بإخلاصها «للنوايا الحسنة» المقدسة. وبالتالي فإن ما قام به هتلر. وموسوليني. وعيدي أمين. والخميني. وتشافيز الذي لا يكف عن الصراخ. وكل من يعلم. دون خطأ أو شك. مدى ولع المجتمع بالأحكام المطلقة: قد تناغم مع الموسيقى العجائبية التي تطلقها الوعود الخيرة النابعة من صفاء النوايا.

إن العلماء العنيدون الذين حظروا استخدام مبيد (DDT) في أفريقيا فتسببوا بمذبحة جراء انتشار الملاريا. ومتطرفي حماية البيئة الذين يخاطرون بالتسبب بالفقر والمرض والمجاعة من خلال المضي قدما في أجندة عنيدة لتنظيف الغلاف الجوي من الغازات الضارة. هم أيضا من المجموعات التي تنطلق من الزعم بإطلاق وجهات النظر المثالية الصافية. كما إنهم يترفعون عن الآليات الديمقراطية ويسعدهم أن يقوموا من طرف واحد بفرض فهمهم المتفوق على الآخرين.

بعد أن كنت في السابق مفتونة بالأفكار. فإنني اليوم واثقة من أن الناس ينبغي عليهم أن يقوموا بالكثير من الأفعال والقليل من التنظير. أما السياسيين فعليهم أن يهتموا أكثر بتوفير الخيارات لا بفرض المثاليات. إن كل إنسان. من الأم الهندية التي تدخر المال لشراء آلة خياطة. إلى المزارع الأمريكي الذي يحرق أرضه في أياداهو. له حق لا ينكر في أن يتبنى نسخته الخاصة به من الحرية. دون نسختك أو نسختي. وكلما استعجل متأدلجوننا في احترام ذلك وإجلاله. كلما أسرعنا في مواجهة مشاكل الحرب والفقر.

وفي الواقع فإن الصراع بين الحرية والأحكام المطلقة يعبر عن أحد الأسئلة الجوهرية في وقتنا الحاضر. وهو: كيف يمكن لمجتمعات حرة متسامحة أن تمتلك تدريجيا التعصب المطلوب ضد المنهج التبشيري العدواني شبه الفاشي للثقافات والأديان والأنظمة الأخرى التي ترغب بفرض وجهات نظرها ومعتقداتها علينا؟ وبعبارة أكثر تحديدا: هل يمكن لمثل

الأحكام المطلقة والنوايا الحسنة

هذه المجتمعات أن تدافع عن نفسها وحرياتها إذا كان القيام بذلك قد يتطلب استخدام القوة العسكرية الطاغية أو الحد بشكل غير مريح من حريات هؤلاء الذين يستغلون كرمنا وحمائتنا القانونية ومنظماتنا الخيرية للسعي خلف أهدافهم المتطرفة والشمولية؟ وبالمختصر: هل يمكن لنا أن نحمي المجتمعات الحرة ونحافظ عليها في آن واحد؟

لا تنفك الأصوات تذكرنا بأن الحرب ليست حلاً. وأنا أتفق مع ذلك شريطة أن لا تكون الحرب ناتجة عن قرار منفرد من أحد الفريقين. وتتعالى الأصوات دائماً بأن المبادرة بالعنف ليست حلاً أيضاً. وليس لها شرعية؛ وأنا أتفق مع ذلك شريطة أن لا يكون الفريق الآخر يخطط للإرهاب على نحو فعال ومتحمس ولا رجعة عنه. كما أن نزع الأسلحة النووية أمر مرغوب إلا إذا كانت الدول الديمقراطية وحدها هي التي تقوم بنزع سلاحها بصدق.

بعد سبعة عقود منذ أن تفوه تشرتشل بنصيحته حول العادة المؤسفة للمجتمعات المتحضرة في النوم حتى يكاد يتغلب عليها الخطر بهدوء. فإننا نسمع أصداءها في السيناريو الذي تسير عليه الأحوال في عصرنا هذا. يقول تشرتشل أن ذلك يحدث «بسبب غياب البصيرة. وفتور العزم على التصرف عندما يكون التصرف بسيطاً وفعالاً. وانعدام التفكير الصافي. واضطراب التخطيط حتى يطرأ أمر ما وتقرع غريزة البقاء نواقيسها الصارخة».